قصة مصرية

يقظة الضمير

بقلم الاستاذ

ابراهيم محمد درويش

وقف ينظر الى الصورة الباسمة شاردا يتراءى له ماض قاتم يأتيه من بعيد . ومرت امامه اطياف حزينة وتحركت الصورة في اطارها وقد اشارت اليه بالخروج وهي تقول في صوت شاحب فيه مزيج من الاسى والغضب والازدراء : انى حبذا لو يكون شيئا بعد الآن . لقد انهى !! ان لو نفسي ثورة وفي ضميري مأساة واذا فكرت يوما في زيارتي فتأكد ان هنا من لا يحب ان يراك !!!

ومضى في تفكير . ومرت به ساعات طوال . وولف الى حجرة مكتبه واستلقى على كرسيه الوثير . وبدأت اطياف الماضي تتراقص امام عينيه تذكره بتلك الايام التي نسج عليها الزمن أردية النسيان ...

كان يوما صائفا قائظا قست فيه الشمس ، والقت اشعتها الملتهبة على الارض ومضى هو الى مكان زاهر وريف الظلال . يلتف فيه الشجر وتتلاقى الغصون وتتشابك الازهار في رفق وتأنق ، ويهب النسيم معطرا بأريج الورود والرياحين فيلامس الوجوه وينعش النفوس . والطيور تثب من غن الى غن في فرح ومرح تغنى انشودة الجمال في سعادة وابتهاج ... وشعر بخدر لذيذ وهو يمد عينيه بعيدا عن ذلك المكان النضير فقد رأى موكبا من عذارى المدينة اقبلن يلتمسن نزهة خلوية ترفه عن نفوسهن القلقة . وارواحهن الهائمة التي تحلق دائما وتمضي الى عالم مجهول .. وجلست احداهن تغني ، فانطلقت الحانها العذبة في الفضاء الساكن تنعب بالعقول وتأخذ بالالباب ثم قام من مكانه يسير الهوينا حتى القى عصا التسيار عند شاطئ البحيرة الصافية . وكانت تجلس بالقرب منه حورية هيفاء ، خمرية اللون . فاحمة الشعر . ناعمة القد . خلابة الجمال . كانت تنظر الى مفاتن الطبيعة وكأنها في حلم ! وكانت طفلتها تتلهى بالقاء الحجارة في الماء . وسقط حجر في الماء قرب المكان الذي يجلس فيه ، فتطاير الرشاش على وجهه وعلى تلك اللوحة التي كان يرسم فيها منظر الغروب واقبال الليل . فلما رأت ما حدث اعتذرت اليه فاجاب بان ذلك عبث بريء . واشار للطفلة بالدنو منه وامسك بها . قبلها قبلة رحيمة كلها عطف وحنان ...

وتكرر لقاؤهما الصامت . وتحدثت عيونهما ذلك الحديث الذي لا يعرف اصطناع الكلمات . فهي لغة العيون التي ترتسم فيها العواطف وتنساب الى القلوب .... ومضت حقبة من الزمن فكان يخرج الى ذلك المتنزه الرائع على البحيرة ولا يراها فتتملى نفسه حزنا واسى . .. وفي ذات يوم اقبلت وعلى وجهها ابتسامة رائعة خلابة ، وكان منهمكا في احدى رسوماته . فربتت عليه . وحيته في لطف وقالت له ما هذا الذي ترسمه

فاجاب : تلك صورة فتاة رأيتها عند غروب الشمس .

فقالت له في مكر ودهاء : ابن هذه الفتاة التي بهرتك الى هذا الحد ؟

فقال : انها يا عزيزتي تقف بجواري الآن ..... اسمحي لي أن اقدم اليك نفسي في كلمة واحدة .... انني احبك !

كيف نمتم وليتكم لم تناموا ... يا ليوثا لا يزعجون الليوثا
وتركتم اخوانكم بين قوم ... (لا يكادون يفقهون حديثا)

وله مقترحا على الشاعرين السيد جعفر الحلي والسيد محمد سعيد الحبوبي تشطير الابيات الآتية من نوع لزوم ما لا يلزم :

واعجبا منك يا فؤادي ... يسعرك الدمع وهو غيث
وانت يا قلب تختشيه ... وهو غزال وانت ليث
مر يريث الخطا وئيدا ... كذاك مشي القطاة ويث

وفي مجموع الفئة خمس قوافي من هذا النوع فعجز كل واحد منهما عن التشطير .

(يتبع) البيان

ومضت لحظات خيل اليه انها السعادة تفيض بين يديه ، وشد على يدها حين انفرجت شفتاها في صوت هادئ عميق : (وانا احبك !) . .

وعاد الفنان الى داره وكان وجهه ينطق بما يجيش في قلبه من عاطفة ، وما يلهب شعوره من احساس عنيف .

وتردد كثيرا على مكان اللقاء فلم يجدها . وعاد الى حزينا يائسا . وكان يمضي الوقت شاردا ذاهلا . وكنت ارقبه عنه كثيرا ولكنه كان ينصرف عني الى الذكرى . .

وفي أصيل يوم مضى هائما الى البحيرة فوجدها . وابتدأت تحدثه : لم اقل لك اني متزوجة . ولم ارو لك مأساة زواجي فقد تزوجت من رجل موفور الثراء ولكنه يحمل فوق كاهله شيخوخة محطمة . وقد تاقت نفسي الى الخروج الى الحياة والانطلاق في مداها الحافل ؛ فكنت اذهب الى المكان الذي كنا نتلاقى فيه كلما سنحت لي الفرصة لالقاك ؛ ولكني لم اجدك . كانت الرجل الذي يحدث عنه ليشعرني برجولته وقوته ؛ وانت الذي تحيي قلبي وتذهب عنه آلام الحياة ومتاعبها . وطوقها في شوق ملح ، وتلاقت الشفاه في قبلة مسكرة ؛ ولأول مرة سار بجوار حبيبته الهيفاء ...

وبعد ايام قلائل حفلت دار سليمان بك بعلية القوم ؛ فقد اعدوب الدار حفلة ساهرة راقصة احتفالا بعيد ميلاد قرينته .. وفي خلال السهرة السعيدة قدم شاب هادئ وديع ترتسم على محياه دلائل المرح والاغتباط ، واتخذ مكانه بعيدا . وكان يرمق ربة الدار بنظرات كلها حب ... وانطلقت الموسيقى تعزف ألحانها الخالدة ؛ فيطرب الجميع لهذه الانغام الحالمة التي تحملهم الى عالم مسحور . وتعارف الشاب والبك ؛ وشكره صاحب الدار على هذه الزيارة ، ورجاه ان يكثر من زياراته وقال له ايضا : اني أعلم عنك كثيرا ؛ فانت رسام بارع ؛ وبودي ان ازورك في معرضك ؛ ولكن سني ومرضي يحولان بيني وبين ما اريد اني سعيد بمعرفتك ، فارجو ان تسعدني بزياراتك المتعة .. فشكره الفتى في حياء ...

ومضى اكثر الليل . وانتهى الحفل ، فانفرط عقد المدعوين .. كان الشيخ قد سمع عنه كثيرا لطو كعبه في فنه ، فلما رآه طافت امامه امواج من الذكريات الحزينة تذكره بمصرع ولده الذي مات في ريعان شبابه ، فبكاه طويلا ولكنه كان يسر لرؤية الفنان ، ولم يكن يدري شيئا عن علاقته بزوجته الشابة التي قدمها اليه في احدى زياراته له ، ولم تكن سوى حبيبته الهيفاء التي عرفها قرب شاطئ النيل ؛ وكثيرا ما جلسوا سويا ، ولكن العاشقين كانا يصمتان في حضرته فلا تظهر منهما بادرة ما تعلن عن حبهما ..

وتلاقيا لقاء آثما ؛ وشرب كل منهما من كأس الشباب الذي يمتزج فيه الحب والطيش والهوى الآثم ..

وفي ليلة من ليالي الربيع كان القمر يسطع في اشراق وروعة واخذت اشعته الفضية تغمر مياه البحيرة . وكانا يجلسان قريبا من الشاطئ وتذكرا حبهما وغرامهما وتحدثت اليه برغبتها في ان يعيشا معا وهمست في اذنه انها يمكنها ان تقضي على ذلك الرجل المحطم . ولكنه ردها عن هذه الخواطر واسر اليها ان وجوده لا يضايقهما .. وقاما من مكانهما ؛ وسارا متخاصرين في طريق تحف به الاشجار حتى وصلا الى منزله فقضت هناك وقتا طويلا في صحبته ترتوي من ذلك الحب الآثم . .

وانصرم العام . واستقبلت الدار طفلة جديدة كانت مبعث السرور والزهو لوالدتها ونمت الطفلة وشبكا ، وافتن الفنان في رسم صور مختلفة لها . وكانت تشبهه الى حد بعيد .

ولم يعد سرا ذلك الحب ؛ فتهامست به الشفاه ، وتطايرت عنه الاشاعات ، وتلقى الشيخ العجوز هذه المحنة باسما هادئا ، ولم يسمح لقلبه الكبير ان يستولي عليه بغض او ضيق ؛ وكان يعلم تمام العلم ان هذه المحنة مصيرها الى الزوال ...

ومرضت الزوجة سامية مرضا مخيفا ، واحتملت آلامه الباهضة في صبر ؛ وفكرت في حياتها الخاطئة وما ارتكبته من آثام ، ورأت زوجها الوقور يبالغ في اكرامها ويحنو عليها ويظهر لها حبا خالصا ووداد نقيا حافلا بالوان الوفاء والايثار . وانطوت على نفسها تنظر الى ماضيها المروع . فتراءى لها ذلك اليوم الذي التقت فيه باحمد الفنان ؛ ورأت ذلك الحب الذي انتهى الى جنون الحب . ومرت امامها طفلتها التي يحبوها الشيخ بعطفه وهو لا يدري من امرها شيئا ؛ وتهالكت فوق سريرها

رؤيا في الجنة

رأيت فيما يرى النائم كأني في عالم مبهج لاأدري كيف اصف مناظره وصوره الخلابه كما لاأستطيع ان اصف أرضه الرطبة المخضرة والتي تناثر عليها حصباء الدر والياقوت ومافيها من انهر جاريات يخلبن اللب ويستولين على مشاعر القلب فهناك نهر من لبن وآخر من عسل ، وثالث من خمر ؛ ورأيت ولدانا يلعبون وحواري يمرحن وكل قد اخذ بيده آلة تبعث في سامعها نشوة الايمان وتنقله الى عالم الملكوت ؛ وسمعت اصواتهم وهي اشبه بحفيف الاشجار وهمس الجداول فقلت: اعلى في عالم غير الدنيا وفي ضقع غير الأرض ، وبينما افكر اذ شعرت بانسان لا كالاناسي قبض على منكبي وقال : ومن اي بلاد انت هل من الفردوس ام من عليين ام.. واخذ يعدد علي منازل الجنة وانا اجيبه لا . لا . فقال اذن من اي مكان انت قلت من اهل الدنيا . قال اذن من ادخلك هنا وبينك وبين الوصول الى هذا المكان عقبات كؤود . قلت ألم تسمع بالصحفيين وما يتمتعون به من صلاحيات واسعة بطرقهم اي ناحية ودخولهم اي مكان قال : وما هي مهمتهم . أجبته : اني كشخص زاول هذه المهنة مدة يتستر من المنافقين والمغرضين فهم منها انها رسالة كبرى تعزز الحق وتقاوم الباطل ، وترصد العيوب التي تربك التأريخ وتشوه الحقيقه وتكافح كل من يريد السوء بالدين . فقال هذه مهنة شريفة وواجب مقدس . فهل من اتصف بهذه الصفة هو مصداق لما تقول. اجبته : يختلفون باختلاف تحسسهم واعتقادهم شأن كل من يدعي اعتناق العقيده .

وفي خلال حواري معه رأيته وهو يحدق ببصره وينظرني نظرة لم اعتد لغرضه منها هل الاعجاب ام الاستخفاف ولكنه وهو يسايرني مسايرة الرقيب سألني واين تبتغي بسيرك هذا . قلت مشاهدة الجنة . قال الم تعرف انها لاتقطع بعام اوعامين . قلت وكيف . قال اولست بمسلم . قلت بلى . قال اولم تقرأ الكتاب المجيد « جنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين » قلت نعم : قال اذاً انت فاشل في رغبتك . فقلت اهدني الى طريقة اكتشف بها الجنة باسرع مايمكن . قال انتظرني يوما وليلة وساعود اليك بملك من ملائكة الجنة المكلفين بدلالة القاصدين اليها .

بقيت اتجول من دون هدى ولا قصد وسألت حورية وقد مرت علي متبخترة . هل لك ان تعلميني عن اسم المنطقة التي نحن بها الآن فقالت بصوت اشبه باصوات المزامير . تسمى « الفردوس » . قلت وهل لك ان تدليني على « عليين » فقالت بينك وبينها امد بعيد . قلت وكيف الوصول اليها . قالت لقد تعاني من آلام . المرض ، وثورة الضمير ، ومأساتها الحزنية المروعة ...

وفي يوم مشرق كانت الشمس هادئة ، والجو صاف جميل، ذهب الفنان لزيارتها وحين رأته هبت منتصبة وارتاعت لمقدمه ! وقالت له في صوت مرتفع فيه مزيج من الغضب والأسى والاحتقار وهي تشير بيدها الى الخارج : لقد قضيت ليلة رهيبة تذكرت فيها ذلك الطيش ، ولمت نفسي . وقد انتهى كل شيء . ان في نفسي ثورة وفي ضميري مأساة ، واذا فكرت يوما في زيارتي ، فثق ان هناك من لايحب ان يراك .

ومضت اعوام طويلة نسي خلالها كل شي ، وخلعت الايام اردية النسيان على ذلك الماضي . ولكنه رأى ابنته تقبل ذات يوم وبرفقتها احدى زميلاتها في المدرسة واحس بميل لايدري كنهه نحو الزائرة الصغيرة ، وحدق فيها تحديقا قويا ، وتذكر انها ابنتها .. ابنته منها ؛ وتراءت له اطيافها ، ودلف الى حجرته وكانت الشمس ترسل اضواءها على الصورة الباسمة ، ووقف أمامها ينظر في شرود .. وقد بعث الماضي وخيل اليه انها تلتصب في سريرها وفي صوتها نبرات من الاسى والاحتقار ويدها تشير الى الخارج قائلة له : ثق ان هنا من لايحب ان يراك .

القاهرة — ابراهيم محمد دزويش